فزان بين يدي الأتراك والطليان

للأستاذ أحمد رمزي بك

— ٣ —

انسحاب الطليان من فزان في عام ١٩١٤ :

٢٤ — يفسر كتّاب إيطاليا أن ظروف التبعة العامة في إيطاليا أملت سياسة إخلاء المستعمرة من حاميتها في الداخل والاكتفاء باحتلال الساحل وبعدون هذا الانسحاب بمثابة نكبة كبرى على الدولة الاستعمارية ، فقد كان هروباً سريع أمام الخطى قوات السنوسيين الذين توغلوا في كل جهة

كانت برقة مهد السنوسية ولما اشتد ساعدها امتدت حركتها إلى نواحي المستعمرة الأخرى فكان الجزء الجنوبي الممتد شمالي فزان من نصيب السيد محمد الصابد ابن الشريف محمد ابن علي السنوسي الحسني الأدريسي الخطابي الذي بدأ الدعوة إلى الجهاد في تلك الجهات . وقد وجد السيد الصابد أنصاراً له عديدين نفذوا أوامره وقاموا بنشر دعوته خير قيام منهم محمد مهدي السنى ابن محمد ابن عبد الله السنارى وهو من مواليد السودان .

٢٥ — وقد انتشرت دعوته حتى وصلت إلى قبائل الطوارق وانضم إليها كثير من زعماء الجنوب الذين بدأوا يهاجمون المواقع الحصينة التي كان يحتلها الفرنسيون والإيطاليون على السواء وكان أن تألفت حكومة بدوية تحت زعامة دينية تحكم هاتيك البقاع وبقيت تحتل فزان وأجزاء من الأراضي الفرنسية طول مدة الحرب الماضية حتى تقلص ظلها بسرعة غريبة حينما أرسل تورى باشا القائد التركي ثلاثة من الضباط الماهرين الذين نجحوا في استخلاص فزان والجهات المجاورة واستعملوا أساليب السياسة والدهاء والمفاجأة في تنفيذ أغراضهم .

٢٦ — وكانت أول غارة للثوار ضد حصن سبها الإيطالي في ليلة ٢٧ نوفمبر ١٩١٤ إذ حمل الهجوم على الحامية ليلا حينما ملا المجاهدون أسوار القلعة وسلطوا نيرانهم وأعملوا السلاح فاضطرت القوة للتسليم إلا من تمكن من الهرب تحت الظلام منسحباً إلى إلى سخنا في الشمال . جاء في وصف هذه المعركة أن رصاص المهاجمين كان ينهمل على عساكر اوتيريا فتسمع أزيز المصابين كما تسمع أصوات الغيران التي أخذت في مصيدة .

ويقول الطليان أن السيد الصابد هو المسئول عن مجزرة سبها إذا انتقل سراً من الكفرة إلى واحة واو الكبير واتخذها مركزاً للدعاية وبث منها بداعيته مهدي السنى الذي دخل وادي الزلاف وهناك دعا الناس إليه وحرض المقاتلين على مهاجمة الحصن حتى إذا نجحوا كان على رأس الغنائم وإذا فشلوا عاد إلى سيده بواو . ولما دخلوا الحصن واستولوا عليه فأصبح طريق فزان مفتوحاً أمامهم .

٢٧ — وما كاد يصل خبر الكارثة إلى السلطات الإيطالية حتى تيقنت بحلول الخطر على حاميتها الموزعة في فزان ، فبعثت بسيارات وصلت إلى مرزوق في ليل ديسمبر سنة ١٩١٤ حملت الضباط والجنود الأوربيين وتركت الحاميات المكونة من عساكر المستعمرات تلاقي بصدورها رصاص الثوار وهي التي تولى قيادتها جاويش عربي من متطوعي الفرق اليمنية اسمه محمد بن عبد الله من قبيلة بني حبيش .

ولاشك في أن تصرف السلطات العسكرية الإيطالية على هذا النحو كان مدعاة لسقوط هيبة إيطالية في الصحراء مدة من الزمن ولم تسترجعها إلا بعد مضي سنوات طويلة .

٢٨ — ولا بد أن نذكر شيئاً عن هذا اليمني المتطوع في صفوف الإيطاليين فهو قد بدأ خدمته في الصومال الإيطالي ضمن الجنود الذين اعتادت الحكومة الإيطالية تجنيدهم من عرب اليمن رغم أن هذا الجزء من أملاك الدولة العثمانية . وقد أظهر هذا اليمني تفانياً في خدمة إيطاليا إذ توجه في يوم ٧ ديسمبر سنة ١٩١٤ إلى منزل الضباط بمدينة مرزوق فوجده خالياً فجزم بانسحابهم فقرر في نفسه أن يأخذ مكانهم ، وعاد إلى القلعة وأعلم الحامية بأن الطليان قد ذهبوا إلى الشمال في سدد تلقي أوامر جديدة صادرة إليهم بمداومة القتال وسيعودون ومعهم الإمدادات . وهكذا صمد هذا اليمني على رأس القوة المحاصرة بالقلعة مدة ١٦ يوماً أمام الثوار المحيطين به حتى اتصل بعض هؤلاء برجال الحامية وقرروا التسليم . وتذهب الرواية الإيطالية إلى أنه أخذ العلم الإيطالي الذي كان

يرفرف على القلعة وعاد به إلى منزله حيث حرقه أمام زوجته .

٢٩ — ولما وقع أسيراً أراد السنوسيون أن يستفيدوا من خبرته فى تدريب المقاتلين وتهيئتهم للحرب على طريقة الجيوش الإيطالية فأبى : وعُدّ إباؤه من مفاخره .

وإنما نسوق هذه الحادثة بالذات لأن المؤلفين الطليان اتخذوا منها دليلا على صلاحية التدريب العسكرى الإيطالى وتأثيره فى بعض النفوس من السكان الوطنيين والوصول بها إلى درجة التضحية فى خدمة الحكومة ونهمنا هذه الناحية بالذات ، فإن الفرنسيين قد برعوا فى تجنيد العناصر الملونة الأفريقية ، وتقدموا فى أساليبهم إلى درجة تقرب إلى الكمال فقد رأينا كيف يتعلم السنغالى القواعد الأولى بهوادة وصبر بحيث لا يتعدى التعليم ساعة من النهار موزعة على دقائق معدودة تسمح لهذا المجند أن يستوعب دقائق الأسلحة بطريقة تغلب عليها قواعد علم النفس بحيث يخرج بعد أشهر وهو متحمس إلى الفرقة وللعلم ولفرنسا .

فإن الذين يتولون تدريب النفس على القواعد العسكرية نسوق هذه الأمثلة للتدليل على أن تجارب علم النفس هى التى يجب أن نسير على هديها للتغلب على الصعاب التى تواجهنا فى تهيأة منظمات الشباب وتدريب الجنود : إذ يصعب على النفس أن تقرر نجاح المستعمر الغاصب وقصور الأمم الفتية الناهضة .

٣٠ — هذه الناحية من حياة فزان طوال عامى ١٩١٥ و١٩١٦ تحت الحكم السنوسى تكلم عنها ضابط إيطالى وقع فى أسر السنوسية وامتقل فى معسكرى واو الكبير وواو الناموس وطبيعى أن معلوماته التى دونها فى يومياته مستقاة مما كان يصل إلى علمه من طريق الثوار الذين عاش بينهم .

أما الفترة الثمانية التى تولى فيها الضباط الأتراك حكم الولاية فستأتى فى القسم التالى وقد تخللها هجوم من المتطوعين وعمليات حربية داخل الأراضى الفرنسية فى الصحراء الكبرى وأراضى الجزائر والجزء الجنوبى من تونس وهى خارجة عن نطاق فزان وأشير على المهتمين بجهاد الأمم المظلومة والمغرمين بالتاريخ الحربى أن يقرأوا كتاب الكولونيل Larcher عن :

1 . Empire Ottoman En Guerre

استيلاء الأتراك على فزان وانتزاعهم الجزء الجنوبى من مستعمرة ليبيا من أيدى حلفائهم السنوسيين

٣١ — ظاهر فى أفق أفريقيا فى أواخر عام ١٩١٦ نورى باشا شقيق المرحوم أنور باشا إذ وصل إلى السلوم وتوجه منها إلى إجدابيه ثم غادر برقه فى غواصة أوصلته إلى مسراطة التى اتخذها مع من معه من الضباط الألمان والأتراك مركزاً لحركاتهم العسكرية ضد الإيطاليين وهى عمليات لا شك أنها خارجة عن موضوع فزان .

٣٢ — وكان نورى باشا[1] فى إجدابيه حينما عرضت عليه فكرة من تلك الأفكار التى لا يتركها تمر أمامه رجل مثله بدون أن ينفذها . وتتلخص هذه الفكرة فى أن مهمته فى طرابلس الغرب ان يلازمها للتوفيق إذا لم يدعم جهاده بعمل حاسم فى الجنوب يرمى إلى احتلال مقاطعة فزان وتحريرها من السنوسيين حتى يتمكن من تهديد المستعمرات الأفريقية للحلفاء أى فرنسا وبريطانيا . باتجاه الصحراء الكبرى وشمال السودان المصرى .

لذلك أرسل بعثتين إلى الجنوب الأولى وجهتها الفكرة والثانية وجهتها فزان .

٣٣ — كانت بعثة فزان مكونة من ثلاثة ضباط : « إحسان ثاقب » و « سنوسى شوكت » و « محمد الأرناؤطى » أما الأول فكان برزياشياً من أهالى طرابلس وتخرج من المدارس العسكرية العثمانية وامتاز بقوة إرادة هائلة وكان الثانى من أهالى برقة تعلم فى مدرسة المدفعية وحصل على رتبة اللازم . أما الثالث فكان من الضباط الشاميين الذين لا يألف أمامهم عائق وهو من كريد.

٣٤ — فلتتصور قوة عشيرة تغادر إجدابيه وتتجه إلى الجنوب وتمر بالراده وبير نعيم وزيلة وفكاد تهاجم من قطاع الطرق ونظراً لضعفها ، تعمل إلى انتزاع إقليم مثل فزان وتهدد منه المستعمرات الأوربية الأخرى .

فعلى الطريق الواقع بين أوجله ومرزوق افترق الثلاثة أبطال . أما أولهم فاتجه رأساً إلى عاصمة فزان حيث دخلها وأقام حكومة باسم السلطان بانضمام قوات السنوسيين إلى لوائه . أما الآخران فكانت وجهتهما واو الكبير حيث استقبلهما السيد العابد السنوسى

(١) تولى نورى باشا قتيلا فى حادث انفجار مصنع للذخائر الحربية : وهو صهر الأميرة المصرية عفت حسن : وباء نبه فى الجرائد المصرية عام ١٩٤٩ .

بحفاوة زائدة وأطلقت المدافع ترحيباً بهما وقدما إليه هدايا سلطان تركيا وفرمانا بمنحه رتبة الباشوية كما وزع النقود الذهبية على الجنود والأتباع .

وكان القصد من هذه الحركة الأخيرة إشغال السيد العابد حتى لا تتجه أنظاره إلى فزان وما يقوم به الضابط الثالث .

٣٥ — ولم يكد الضابطان ينادرا واو الكبير متجهين جنوباً حتى وصلت الأنباء بالحركة التي قام بها ثائب في مرزوق ولذلك وجه السيد العابد قوة من رجاله تحت قيادة صهره السيد الماشب زحفت على مرزوق وأجلت الأتراك عنها واستعملت كل وسائل العنف والتشريد مع الأهالي . ثم اتجهت شمالا إلى الأبيض حيث التقت مع القوة التي جمعها الضباط العثمانيين وهناك دارت معركة فاصلة انتهت بهزيمة السيد العابد وأسر صهره الماشب الذي حوكم على النهب والقتل الذي ارتكب في مرزوق فأعدم شنقاً في سبها ولما وصلت هذه الأنباء إلى السيد العابد غادر واو الكبير مذعناً إلى الكفرة .

٣٦ — إن هؤلاء الضباط من أهل طرابلس الذين تلقوا تدريباً عسكريا في مدارس الأتراك قاموا بعمل من أعظم الأعمال فهم فرادى كان اعتمادهم على الجنود الوطنيين الذين جندتهم الدولة العثمانية في السابق ثم على الجنود خدموا في الجيوش الإيطالية وأخيراً حينما توسد شأنهم عرفوا كيف يضمون الجنود الوطنيين من المغاربة والطوارق والسنغال إلى صفوفهم .

٣٧ — إن هذه الصفحة خطيرة وهي تكاد تتضمنا بمخاوف الدول الاستعمارية في أفريقية بأكملها إذا قدر لها أن تواجه في المستقبل رجالا من هذا النوع فيهم التصميم والإرادة ومواجهة الأخطار ومن هذا نفهم جيداً مركز فزان في القارة الأفريقية . لأن الذي يسيطر عليها يوشك أن يملأ السودان والصحراء بالدعوة والدعاية التي يريدها . وبهز الاستعمار الأوروبي

وقد جاء في كتاب الكولونل لارشيه الذي أشرت إليه ذكر بعض عمليات ترتب عليها تسليم مراكز عسكرية فرنسية بعتادها في الحرب العالمية الأولى .

٣٨ — ويشير صاحب كتاب طرابلس Sahara Tripolitauo

أن الحكومة التي أنشئت بفزان استطاعت أن تربط مرزوق بخط تلغرافي مع مسراطة باستعمال زجاجات المياه المعدنية لحمل الإسلاك وذكر أنه لجأ إليهم وافق لأول مرة معاملة مدنية ورأى بعينه حركة القوافل والاتصال بين الشمال والجنوب وإلى رجالها يرجع الفضل في ترحيله إلى مسراطه حيث ضم إلى معسكر الأسرى الإيطاليين فاتصل بالعالم لأول مرة وعرف أهله بوجوده حياً يرزق بعد أن كانوا قطعوا الأمل من حياته .

وقد بقيت فزان تدار بمعرفة هؤلاء مادامت حكومة مسراطه قائمة حتى أمضيت الهدنة ١٩١٨ فانسحب الألمان والأتراك ثم رأس الحكومة « رمضان الشتوى » ثم ساد فزان عهد من الفوضى نتيجة للنزاع الداخلي .

٣١ — وفي سنة ١٩٢١ جاء « فولبي » حاكما المستعمرة فاتجه إلى احتلال مسراطة ثم أقرت الحكومة الفاشستية سياسة القمع والفتح والتشريد فأخذت ١١ عاماً بين ١٩١٨ و ١٩٢٩ للوصول إلى فزان .

ومن دروس هذه الحقبة وتجاربها أخذت الدولة المستعمرة بمجرد استعادتها لهذه الأراضي تنفذ برنامجاً واسعاً لرصف الطرق ، وأنشأت حصونها على أحدث طراز منها Forte Elena الذي يعد أقوى الحصون الدائمة في المنطقة وهو في مدينة سبها . وسنرى في القسم التالي مشاكل إيطاليا وقوادها مع فزان وأهلها.

(يتبع) أحمد رمزي

من مؤلفات نقولا الحداد العلمية

	ص
عالم الذرة أو الطاقة الذرية	٣٠
هندسة الكون بحسب ناموس النسبية	٣٥
فلسفة التفاحة أو جاذبية نيوتن	١٠

تطلب هذه الكتب من دار الرسالة ومن المؤلف في ٢ ش البورصة الجديدة ومن بعض المكاتب خالصة أجرة البريد